ترجمان التربية

سعيد بن محمد آل ثابت

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ترجمان التربية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله،، وبعد،،

فلا يخلو مجتمع من قدوات تقوده لمعتقده، وهذه سنة الله في الحياة، إذ كان المُشاهَد أبلغ من الغائب، ولذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام قدوات لمجتمعاتهم تقودهم للخير عياناً، وتدلهم للفضيلة شهادةً.

للقدوة أثرها العميق في الدعوة إلى الله، والتربية على منهج الشريعة القويم، ومن هذا الأساس سنلقي الضوء على مساحة من هذه المنطقة الناضرة-التربية بالقدوة- بعنوان: ترجمان التربية، وترجمان تعني: المترجم[1]، وهو ناقل الكلام من لغة لأخرى، وقيل المفسر[2]، ، وهو لقب عبدالله بن عباس رضي الله عنهما (ترجمان القرآن). وأقرب معنى لترجمان التربية: المفسر لمنهج التربية اعتقاداً وسلوكاً. وإذا ما نظرنا لأبلغ أداة لنقل التربية من مفهومها النظري إلى السلوك العملي رأيناها امتثال المربي لما يعتقد، ولهذا كانت القدوة=ترجمان التربية، ونسأل الله السداد والهداية، وأن يؤتينا من لدنه رحمة وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

1. معنى القدوة
2. أقسام القدوة
3. أهمية القدوة في حياة الناس (للمؤثرين عموماً)
4. الرسول القدوة
5. المربي القدوة، وثمرات التربية بالقدوة
6. وقفة مع السلف
7. لوازم القدوة
8. القدوة وتصحيح الأخطاء

---

[1] "معجم الوسيط".

[2] "معجم الرائد".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

9. الهيئة والمظهر عند القدوة
10. موعظة القدوة
11. مفاهيم خاطئة عن القدوة

أولاً: معنى القدوة:

ما يقتدى به ويتخذ مثالا: هذا العمل هو قدوة الناس. وقدوة: أسوة: لي بك قدوة. وقدوة: أصل: الذي تتشعب منه الفروع[3]. فالقدوة إذاً: نموذج إنساني يعيش ممثلاً لمنهجه الذي يعتقده.

ثانياً: أقسام القدوة

للقدوة قسمان: حسنة وسيئة، قال السعدي في تفسير قوله سبحانه: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة": فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

1. القدوة الحسنة، وهي قسمان:

أ. قدوة حسنة مطلقة: وهي متمثلة في الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. ودوننا هذه الآيات لنتأملها، قال الحق تعالى: "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ.."الممتحنة:4، وقال تبارك وتعالى: "قد كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ"الممتحنة:6. وقال سبحانه: "لقد كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"الأحزاب:21. وتأمل هذا المعنى العميق في قوله جلّ وعلا: "أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ"الأنعام:90. قال ابن كثير: قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم–: (أولئك) يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية

---

[3] "معجم الرائد".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والإخوان وهم الأشباه. (الذين هدى الله) أي: هم أهل الهداية لا غيرهم. (فبهداهم اقتده) أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرا للرسول -صلى الله عليه وسلم، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به[4]. وقال السعدي: امش -أيها الرسول الكريم- خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امتثل صلى الله عليه وسلم، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ، استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفضل الرسل كلهم.[5]

ب. قدوة حسنة مقيّدة، وتتمثل في العلماء الربانيين والهداة الصالحين والمربين، ولعله بيت القصيد من حديثنا يدور حول هذا النوع، إذ القدوة المقيّدة حال عموم العلماء والمصلحين، وهذه التقييدات نسبية ومختلفة اختلف بعضهم في تحديدها، وممن قيدها ابن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: مَن كانَ مُسْتَنًّا، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ، فإنّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ، أولئك أصحابُ محمد -صلى الله عليه وسلم-، كانوا أفضلَ هذه الأمة: أبرَّها قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلّها تكلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيِّه، ولإقامة دِينه، فاعرِفوا لهم فضلَهم، واتبعُوهم على أثرهم، وتمسّكوا بما استَطَعْتُم من أخلاقِهم وسيَرِهم، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم[6]. ولعل ابن مسعود يشير لأهل زمانه ولمن بعدهم، وهي إشارة مربٍ حذق لا يفوته معنى القدوة في الأفراد وعملها فيهم، إذ أثيرها يسري عبر الأجيال، وهذا لا يتنافى مع من يقتدي بالربانيين في عصره إذا ما كانوا على الهدي القويم والصراط المستقيم فضلاً أن يموتوا على ذلك.

2. القدوة السيئة: وهذا لا يخلو مجتمع منه، إذ لكل فساد رواده، وهي حجة أهل الضلال في القديم والحديث، قال سبحانه: "بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم

---

[4] "تفسير ابن كثير"

[5] "تفسير السعدي"

[6] "جامع بيان العلم وفضله"؛ لابن عبد البر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون "الزخرف:22-23.

ثالثاً: أهمية القدوة في حياة الناس عموماً:

1. فطرة الناس أنها تتشبه ببعضها وخاصة بأهل الفضل فيهم والزكاء والعلم. قال ابن تيمية: كم من الناس من لم يرد خيرا ولا شرا حتى رأى غيره. لاسيما نظيره ـــ يفعله ففعله؛ فإن الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض؛ ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه، كما في الحديث الصحيح: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.. "رواه مسلم.[7]
2. حسن أداء الأعمال والاقتداء بالمثل العليا، وقد وُصف عهد الرسالة بأن المصاحف كانت تمشي[8]، وهذا وصف بليغ موجز في الامتثال والاهتداء.
3. بث العزة في النفوس، وحثها على العمل.
4. الدلالة على إمكانية التطبيق، وقد قالوا: عمل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل. وعند البخاري جاء في قصة صُلح الحديبية، وفيه: (فلما فُرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا قال فو الله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالِقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالِقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلِقُ بعضا).
5. الإعجاب المؤدي للاتباع، فتبدأ بمشاعر حب ثم ملاحظة القدوة ثم الامتثال والاقتداء.

---

[7] "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"؛ لابن تيمية، (ص:68).

[8] كانت عبارة في مقال قديم في مجلة الدعوة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

6. نيابة عن البلاغ، وتدبر معي قول الحق تبارك وتعالى وما قاله ابن كثير رحمه الله، "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ".فصلت:33. قال ابن كثير: يقول تعالى: "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله" أي: دعا عباد الله إليه، "وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين" أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في نفسه مهتد، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.
7. مستويات فهم الكلام عند الناس تتفاوت، ولكن تتساوى وتتسامى أمام المثال الحي.

رابعاً: الرسول القدوة:

قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"الأحزاب:21. قال ابن كثير: هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله; ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين; ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب. "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال: "لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا "[9].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم وأجل ما يقتدي به المسلمون بل وغيرهم، إذ كانت وصية الله وأمره بذلك، وهو أعلم برسوله وبالناس أجمعين، وأدرى بصلاحهم

[9] تفسير ابن كثير.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حيث جعل في نبيّه كامل الصفات وأجل السمات، ودونك هذه الأخبار تأملها واستنتج القاسم المشترك فيها؛ عند أحمد وأبي داود عَنْ جَابِرٍ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَمَى الْجَمْرَةَ يَوْمَ النَّحْرِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، وَقَالَ: "خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ". وفي الصحيحين عن حمرانَ مولى عثمانَ بنِ عفانَ: أنه رأى عثمانَ دعا بوَضوءٍ، فأفرغ على يديه من إنائَه فغسلَهما ثلاثَ مراتٍ، ثم أدخل يمينَه في الوَضوءِ، ثم تمضمضَ واستنشقَ واستنثرَ، ثم غسل وجهَه ثلاثًا ويديه إلى المرفقينِ ثلاثًا، ثم مسح برأسِه، ثم غسل كلَّ رجلٍ ثلاثًا، ثم قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يتوضأُ نحوَ وُضوئِي هذا، وقال :من توضأَ نحوَ وُضوئِي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه، غفر اللهُ له ما تقدمَ من ذنبِه. وفي الصحيح عن مالك بن الحويرث قال: أتَينا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونحن شَبَبَةٌ مُتَقارِبون، فأقَمْنا عِندَهُ عِشرين يومًا وليلةً، فظنَّ أنا اشْتَقْنا أهْلَنا، وسَألَنا عمَّنْ تَرَكْنا في أهْلِنا، فأخبَرناه، وكان رَقيقًا رَحيمًا، فقال: "ارْجِعوا إلى أَهلِيكم، فعَلِّموهم ومُروهم، وصَلُّوا كما رأيتُموني أُصَلِّي، وإذا حضرَتِ الصلاةُ، فلْيُؤَذِّنْ لكم أحَدُكم، ثم لْيَؤُمَّكم أكبَرُكم". وفي صحيح الأدب المفرد دخلنا على عائشةَ فقلنا: يا أمَّ المؤمنين! ما كان خُلُقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟ قالت: كان خُلُقُه القرآنُ. قال الألباني: صحيح لغيره. وفي الصحيح وغيره عن جرير بن عبد الله قال: ما حجبني النبيُّ صلى الله عليه وسلم منذُ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسمَ في وجهي. ولقد شكوتُ إليه أني لا أثبتُ على الخيلِ، فضرب بيدِه في صدري وقال: اللهم ثبتْه، واجعلْه هاديًا ومهديًّا.

وفي الصحيح سُئلت عائشةَ ما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصنعُ في بيتِه؟ قالت: كان يكونُ في مهنةِ أهلِه تعني خدمةَ أهلِه فإذا حضرتِ الصلاةُ خرجَ إلى الصلاةِ. وفي صحيح الترغيب للألباني، قال رسول الله: يا عائشةَ! ذَرِيني أتعبَّدُ الليلةَ لربِّي قلتُ: واللهِ إنِّي أُحِبُّ قُرْبَكَ، وأُحِبُّ ما يَسرُّكَ. قالتْ: فقامَ فتَطَهَّر، ثُم قامَ يَصلِّي، قالتْ: فلمْ يَزلْ يَبكِي حتى بلَّ حِجْرَه، قالتْ: وكانَ جالِسًا فلمْ يَزلْ يبكِي حتى بَلَّ لِحيتَه. قالتْ: ثُم بكَى حتى بلَّ الأرضَ. فجاء بلالُ يُؤْذِنَه بالصَّلاةِ، فلمَّا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

رآهُ يبكِي، قال: يا رسولَ اللهِ! تبكِي وقدْ غفر اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأخَرَّ؟ قال: "أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟ لقد أُنزِلتْ عليَّ الليلةَ آيةٌ؛ ويْلٌ لِمن قرأَها و لم يتفكرِ فيها: إن في خلق السموات والأرض الآيةُ كلُّها". وفي الصحيح قام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى تورَّمَتْ قدَماه، فقيل له: غفَر اللهُ لك ما تقدَّم من ذَنْبِك وما تأخَّر، قال: "أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا". وعند الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصَفَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ليس بِالطَّويلِ الْمُمَغَّطِ، ولا بِالقصيرِ الْمُتَردِّدِ، وكانَ رَبْعةً من القومِ، و لمْ يَكُنْ بِالجعدِ القَطَطِ ولا بِالسَّبْطِ، كان جَعْدًا رَجِلًا، ولَمْ يَكنْ بِالْمُطَهَّمِ، ولا بِالْمُكَلْثَمِ، وكان في الوجْهِ تَدْوِيرٌ أبيضَ مُشْرَبًا، أدْعَجَ العيْنَيْنِ، أهْدَبَ الأشْفارِ، جليلَ الْمُشَاشِ والْكَتَدِ، أجْرَدَ ذا مَسْرُبَةٍ شَثْنَ الْكَفَّيْنِ والْقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي في صَبَبٍ وإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعًا، بين كَتِفَيْهِ خاتَمُ النُّبوةِ، وهُو خاتَمُ النَّبيينَ، أجودَ الناسِ كَفًا، وأشْرَحَهمْ صدْرًا، وأصْدَقَ الناسِ لَهْجةً، وألْيَنَهمْ عَرِيكةً، وأَكرمَهمْ عِشرَةً، مَن رآهُ بَدِيهةً هابَهُ، ومَن خالَطَهُ مَعرِفَةً أحَبَّهُ. يقولُ ناعَتَهُ: لَم أرَ قبْلَه ولا بَعدَه مِثلَه، صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وعند مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا خطب احمرَّتْ عيناه، وعلا صوتُه واشتدَّ غضبُه. حتى كأنه مُنذِرُ جيش، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. ويقول: "بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتَين". ويقرنُ بين أصبعَيه السَّبَّابةَ والوُسطى. ويقول: "أما بعدُ. فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ. وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ. وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها. وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ ". ثم يقول: "أنا أَوْلى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه من ترك مالًا فلأهلِه. ومن ترك دَيْنًا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ". وفي صحيح والترغيب للمنذري عن زيد بن سهل ورواه الترمذي قال: شكوْنا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوعَ، ورفعنا ثيابَنا عن حجرٍ على بطونِنا، فرفع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن حجرَيْن.

وغير ذلك من الآثار الكثيرة ذات المعاني الوفيرة في هدي رسول الله وسنته، والمحدق في تلك الآثار لم يجدها إلا دعوةً للاقتداء به، أو وصفاً عن حاله وردة فعله، بدءاً بالصلاة وهي أعظم العبادات حتى الأخلاق والسلوك والسيرة الأسرية، كل ذلك وصفاً لهديه

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونهجه دون وصية مباشرة منه عليه الصلاة والسلام، وأهل التربية والتعليم عندهم مفهوم المنهج الخفي، ويعرفونه: بأنه مجموعة المفاهيم والعمليات العقلية والاتجاهات والقيم والأداءات التي يكتسبها المتعلم خارج المنهج المعلن أو الرسمي طواعية وبطريقة التشرب نتيجة تفاعل المتعلم تفاعلات مختلفة مع زملائه ومعلميه في المدرسة ومن خلال الأنشطة غير الصفية وبالملاحظة والقدوة. فيتعلم الطلاب قدراً كبيرا من المعلومات والمعارف والحقائق داخل المدرسة من مصادر غير المنهج الموجود في الكتب المدرسية وهذا المنهج يتخذ عدة أسماء ولكنها تحت معنى واحد وهذه المسميات متمثلة في المنهج الضمني أو المختبئ أو الموازي أو غير المكتوب أو غير الرسمي أو غير المدرسي أو غير المخطط؛ فالمنهج الخفي أو المستتر موجود معنا ويرافقنا في كل ما نقوم به من أعمال لها علاقة بالتربية والتعليم. وإذا ما نظرنا للمنهج الخفي في مدرسة الرسول عليه الصلاة والسلام وجدناه حاضراً بقوة في كل مشهد تقريباً، وهذا ما عزز المجتمع الرسالي حتى كان أحدهم مصحفاً يمشي، فيتعين على المربي المؤثر امتثال ما يعتقد فهو أخصر الطرق وأعمقها في الإصلاح والتغيير.

خامساً: المربي القدوة وثمرات التربية بالقدوة:

للتربية بالقدوة كما سبق أثرها العميق ومفادها الواسع، وحتى تؤتي ثمارها لابد من أهلية أركانها الثلاثة: المنهج، المربي، وأخيراً المتربي؛ فالمنهج كامل ومؤهل لزعامة التربية كيف لا وهو منهج الوحي الكريم، وبه ساد الأولون وضرب الإسلام بأطنابه أقاصي الأرض شرقاً وغرباً، والمربي لا بد أن تكتمل أهليته بالعلم والإيمان والفقه الدعوي حتى يحسن إيصال الرسالة كاملةً ولا يكن ثغرةً على الإسلام وأهله، ومن ثم أهلية المتربي للتطبيق والتلقي والتعاطي مع المنهج والمربي بإيجابية، وعند النظر نميّز أن حجر الزاوية هو المربي وأهليته، فهو الوسيلة بين منهج كامل ومتربٍ محتاج. وللتربية بالقدوة ثمرات تزيد على أهمية القدوة بشكل عام، ومن ذلك:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

1. حصول الأجر والثواب حيث أنه قدوة في العمل ودالٌ عليه بهديه، وعند مسلم من حديث جابر جاء ناسٌ من الأعرابِ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم الصوفُ فرأى سوءَ حالِهم قد أصابتهم حاجةٌ. فحثَّ الناسَ على الصدقةِ فأبطؤوا عنه. حتى رُؤِيَ ذلك في وجهِه. قال: ثم إنَّ رجلًا من الأنصارِ جاء بصُرَّةٍ من وَرِقٍ. ثم جاء آخرُ. ثم تتابعوا حتى عُرِفَ السُّرورُ في وجهه. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "من سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حسنةً، فعُمِلَ بها بعده، كُتِبَ له مثلُ أجرِ مَن عمل بها. ولا ينقصُ من أجورِهم شيءٌ. ومن سنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سيئةً، فعُمِلَ بها بعدَه، كُتب عليه مثلُ وِزرِ من عمل بها، ولا ينقصُ من أوزارِهم شيءٌ ". وفي رواية: "لا يَسُنُّ عبدٌ سنةً صالحةً يُعمَلُ بها بعده" ثم ذكر تمامَ الحديثِ.
2. تهذيب أخلاق المتربي وتعديل ما يطرأ من سلوكيات مخالفة، وفي الأدب المفرد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمِنُ الَّذي يخالطُ النَّاسَ و يصبِرُ على أذاهُم، خيرٌ مِن الَّذي لا يخالِطُ النَّاسَ ولا يصبِرُ على أذاهُمْ" صححه الألباني. وفي قوله (يصبر على آذاهم) دلالة مباشرة التهذيب وتحمل التبعات في سبيل تقويم الخلق وتعديله، وهذا لا يكون جزماً إلا بمن يعايش ويكون قدوة صالحة في مجتمعه.
3. اقتداء أرباب الطاقات والقدرات به. المربي القدوة يحفز ذوي الطاقات بعلمه وإيمانه وتربيته، ومن ثم له غنم ذلك حين يتعدى خيرهم، وهذا لن يكون من مربٍ لا يتمثل منهجه بكمال ورقي، ولذا وجدنا الصحابة يتقاسمون أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ويغنمون منها كما روى الترمذي من أحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرحمُ أُمَّتي بِأُمَّتي: أبو بكرٍ، وأَشَدُّهُمْ في أَمْرِ اللهِ: عمرُ، وأَصْدَقُهُمْ حَياءً: عثمانُ، وأَقْرَؤُهُمْ لِكتابِ اللهِ: أُبَيُّ بْنُ كعبٍ، وأَفْرَضُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وأعلمُهُمْ بِالحَلالِ والحَرَامِ: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، ألا وإِنَّ لِكلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وإِنَّ أَمِينَ هذه الأُمَّةِ: أبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ" قال الترمذي: حسن صحيح. وذُكِرَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ عِندَ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو فقال: ذاك رجلٌ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لا أزالُ أُحِبُّه، سَمِعتُ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم يقولُ: "خُذوا القرآنَ من أربعةٍ: من عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ -فبدَأ به- وسالمٍ مولَى أبي حُذَيفَةَ، ومُعاذِ بنِ جبلٍ، وأُبَيِّ بنِ كعبٍ" رواه البخاري. وهذه الميزات المحوزة لدى الصحب الكرام لا شك أنها استقاء من معينه المؤثر عليه الصلاة والسلام.

4. غرس المفاهيم، وتعزيز القيم، وارتوِ من هذا الخبر غرفة تجد ذلك: في البداية والنهاية ورجاله رجال الصحيح عن أنسٍ أنَّ رجلًا من أهلِ الباديةِ كان اسمُه زاهرًا يُهدي النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الهديةَ من البادية فيُجهِّزه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أراد أن يخرجَ فقال رسولُ اللهِ إنَّ زاهرًا باديتُنا ونحن حاضروه وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحبُّه وكان رجلًا دميمًا فأتاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يبيعُ متاعَه فاحتضَنه من خلفِه ولا يُبصرُه الرجلُ فقال أَرْسِلْني من هذا؟ فالتفت فعرف النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فجعل لا يألو ما ألصق ظهرَه بصدرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حين عرفه وجعل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول من يشتري العبدَ فقال يا رسولَ اللهِ إذَنْ واللهِ تجدُني كاسدًا فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لكن عند اللهِ لستَ بكاسدٍ" أو قال: "لكن عند اللهِ أنت غالٍ". ويؤخذ من هذا الخبر تواضع الرسول عليه الصلاة والسلام وانبساطه للناس عامة وصدقه في المزاح والجد، وكل ذلك لم يكن عبر محاضرة بل أسوة حاضرة.

سادساً: وقفة مع السلف:

للسلف في هذا الباب قصب السبق، ولاريب فهم خير الأمة وأولى الناس بإمامة الناس، وقد قال إمام دار الهجرة: لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أمر أولها. إنهم يعون معنى صلاح هذه الأمة ومقتضيات ذلكم الصلاح، واقتصرت هنا على ثلاث آثار نفيسة تحكي معنى القدوة ونفاسته في قومه.

الأثر الأول: قال أبو عمرو المستملي: سمعت محمد بن رافع، يقول: كنت مع أحمد وإسحاق عند عبد الرزاق، فجاءنا يوم الفطر، فخرجنا مع عبد الرزاق إلى

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المصلى، ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا، دعانا عبد الرزاق إلى الغداء، ثم قال لأحمد وإسحاق: رأيت اليوم منكما عجبا، لم تكبرا، فقال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر، كنا ننتظر هل تكبر، فنكبر، فلما رأيناك لم تكبر، أمسكنا، قال: وأنا كنت أنظر إليكما، هل تكبران فأكبر[10]. فإنا لا نعلم في أي زاوية من المشهد نعجب! من عبدالرزاق الإمام الكبير حيث انتظر أضيافه يبتدرون السنة، أم من الإمامين الذَيْن قدرا عظم الإمام الأكبر وهابوا أن يقولا ما لا يصح عنده، وهذا يعطي المربي إشارة في أثر عمله وعبادته وحفاظه على المُثل حتى ولو لم يُخبر بذلك و لم تتسابقه العيون، وحريٌ أن يكن دافع ذلك هو نجاته أولاً والتأثير لاحقٌ لاريب.

الأثر الثاني: قال خالد بْن صفوان، قال: لما لقيت مسلمة بْن عَبْد الملك بالحيرة، قال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة، قلت: أصلح اللَّه الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قبلي به، أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولا بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كَانَ أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كَانَ أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك يا خالد، كيف يضل قوم هذا فيهم[11].تأمل هذه الخصلة في الحسن البصري: (أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولا بفعل).

الأثر الثالث: قال إبراهيم النخعي: كَانُوا إِذَا أَتَوُا الرَّجُلَ لِيَأْخُذُوا عَنْهُ نَظَرُوا إِلَى صَلاتِهِ، وَإِلَى هَدْيِهِ، وَإِلَى سَمْتِهِ [12]. وهنا ندرك تقديرهم لسمت الرجل وهديه بعيداً عن تنظيراته وكلماته؛ لأنهم يدركون أن من خاف الله في نفسه خافه في خلقه، وأن من ابتدأ نفسه بما يقول صدق غيره فيما يدل عليه.

---

[10] "سير أعلام النبلاء"؛ للذهبي، (566/9).

[11] "تهذيب الكمال"؛ للمزي، و"سير أعلام النبلاء"؛ للذهبي، (576/4).

[12] "الحلية"؛ لأبي نعيم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سابعاً: لوازم القدوة:

للمربي القدوة لوازم عديدة حتي يكون مؤهلاً لهذا العمل الفريد والشاق، وهي لا تخرج غالباً من ثلاث: العلم والإيمان والخلق الحسن.

قال جل من قائل: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، وقال سبحانه: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"، وقال-عليه الصلاة والسلام-: "إن الله سبحانه وملائكته وأهل سماواته وأرضه حتى النملة في جحرها والحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير "صححه الألباني في صحيح الجامع. وإذا أطلقنا العلم قصدنا به علم الشريعة. فالعلم نور لصاحبه يضيء له الطريق، وخلفه الناس يلتمسون نوره لهم، روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث بن عبدالله بن عمرو قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول: "إن اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزِعُهُ من العبادِ، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذَ الناسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفْتَوا بغيرِ علمٍ، فضلوا وأضلوا"، وقال عمر-رضي الله عنه-: "تفقهوا قبل أن تسودوا"، أي تعلموا قبل أن تباشروا الناس؛ وكذا كان الرعيل الأول أصحاب العلم والعمل الذين أثْروا بعلمهم وأثّروا بعلمهم وعملهم.

وثاني اللوازم: البناء الإيماني، قال الحق: "وتزودوا فإن خير الزاد التقوى"، إن الإيمان والعمل الصالح هو الزاد الحقيقي للعبد، ألم تر أمر الله لرسوله عليه الصلاة والسلام إبان بداية الداعية "يا أيها المزمل*قم الليل إلا قليلا"؛ لأن صلة العبد بربه هي مظنة التوفيق والسداد والإعانة. إن ولاية الله لعبده لا تكن حتى يكن، وفي الحديث القدسي: "من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه.." الحديث، ولا يعلم أن هناك محتاجاً لولاية الله ونصرته أكثر من الداعية والمصلح؛ إذ الدعوة عطاء وبذل! وخيرُ زادٍ لها هو الزاد الإلهي، ثم كيف له أن يدعو لله وهو أجهل الناس بالله لا سيما في علاقة العبد بربه وصلته به؟! قال المناوي: مترلة الواعظ من الموعوظ كالمُداوي من المداوى فكما أن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا كذا فإنه سم ثم رأوه يأكله عد سخرية وهزؤا، كذا الواعظ إذا أمر بما لم يعمله ومن ثم قيل يا طبيب طبب نفسك، فالواعظ من الموعوظ يجري مجري الطابع من المطبوع فكما يستحيل انطباع الطين من الطابع بما ليس منتقشا فيه فمحال أن يحصُل في نفس الموعوظ ما ليس في نفس الواعظ)[13].

قال ابن كثير عن صلاح الدين الأيوبي: (وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة. يقال: لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه)[14].

وآخر هذه اللوازم الخلق الحسن وفقه الدعوة، قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون". أنظر صحيح الجامع رقم 2201. وهل سيكون المجلس بهذا القرب على يُسر في تحصيل حسن الخلق، بل الأمر أعظم من ذلك!

إن من حُرم هذه السجية حُرم الخير الكثير، وفاته المقعد البهي بجوار حبيب الله- صلى الله عليه وسلم-، وإنه لمطلب عظيم أن نتخلق بالحسنى، لنوصل رسالة الإسلام بهدينا وأخلاقنا لكافة البشرية، بل وقد وصل بإسلامنا أن دعانا حتى للتخلق بالحسنى مع غير البشر! إن شريعتنا الغراء دعت لنبل الصفات والأخلاق في التعامل مع الناس بدءاً مع الوالدين، وذوي القربى والجيران، وكل المسلمين؛ بل وكان هناك الأجر المديد لطيب المعشر وحسن الخلق، وضده الوعيد الأليم لسيء الطباع والأثر، وقد روى البخاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان جالساً فمروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت، ثم مرت جنازة أخرى فأثنوا عليها شرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وجبت، فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت؟ قال: "هذا أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم

---

[13] "الذريعة إلى مكارم الشريعة"؛ للراغب الأصفهاني.

[14] "البداية والنهاية" (5/13).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض". المصيبة كل المصيبة أن نجد بعض الأخيار والمحسوبين على التربية والدعوة يسود جوّهم الخلاف والتنازع، وقد رسم الله لهم الحل في كثير من هذه المتاهات قال تعالى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"فصلت:34، وفي سورة الحجر:88 قال الله: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ"، وقال تبارك وتعالى: "وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"الشعراء:215.قال السعدي: (بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل صلى الله عليه وسلم، ذلك كما قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه! وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له). ولقد ذكر الله عن صفات المؤمنين: "الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"آل عمران:134. إن إدراك حسن الخلق أمر ينبغي للنفوس الربانية أخذ العزم والأهبة الجادة في ذلك، والتنافس الشريف على هذه النبيلة العظيمة، وإن الروح المؤمنة تُحب الخيرية أينما حلت وكانت، وتطلب بلوغ غايات الخالق جل وعلا، وقد تُوفق، وقد تحرم. لكن من عرف مقاصد الشرع الحنيف في تعبيد الناس لرب العالمين أيقن بأهمية تحسين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأخلاق، وتطييب العشرة، وتزكية السلوك بل لا يكن للعمل والقُربة إلى الله أي خطوة إلى الأمام إن جانبت الأخلاق الفاضلة، والخصال النبيلة، ويُعضد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في النار. قال: يا رسول الله! فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصَدّق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها. قال: هي في الجنة. رواه أحمد في مسنده. إن هذا الخبر وغيره يوكد على المربي أن يُشمر عن ساعد الجد وأن يبدأ في كل باب رفيع من الأخلاق فيطرقه، ويجد منه ولو سهماً، ولا عجب في ذلك إن آمنا بما روته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الرجل ليدرك بحسن خلقه، درجات قائم الليل صائم النهار" رواه الألباني في صحيح الجامع. إنها دعوة أبدأ بها نفسي لنخلق أجواءً من الأخلاق في نفوسنا تكون نسمات نعيشها، ويأنس بها من يستنشقها بعدنا، وإن كريم الصفات والخلال الذي يعمل ذلك لايريد بعمله إلا وجه الله والدار الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا و بيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا و بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه "حديث حسن أنظر صحيح الجامع رقم 1464.

وفقه الدعوة أمرٌ ملازم لحسن الخلق حيث تقدير المصالح والمفاسد وفقه مقاصد الشريعة وحسن إدارة الموقف وغير ذلك.

فهذه اللوازم الثلاث العلم، الإيمان، وحسن الخلق كافية بإذن الله لصناعة قدوة مؤهل لأخذ التربية بحقها، وترك الأثر الحسن في قلوب المتربين، وقد أشرت لها إشارات فقط وإلا فالحديث بحقه ليس هنا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثامناً: القدوة وتصحيح الأخطاء:

يدرك الجميع أن الخطأ من طبيعة البشر وعند الترمذي: "كل بني آدم خطاء.. الحديث"، ولكن كيف يعالج هذا الخطأ؟ وما هو الخطأ الذي يعالج؟ ولأهمية هذا الموضوع في حياة الناس وتأثيره لا سيما من القدوات أفردته مع أنه جزء من لوازم القدوة من سبيل حسن الخلق والفقه الدعوي، إذ التخطئة لابد أن تبنى على دليل وليست مزاجاً، وكل خطأٍ بحسبه فخطأ عقدي وآخر خلقي وثالث من قبيل العادات، فخطأ من قالوا: اجعل لنا ذات أنواط، وخطأ من قالوا: ما رأينا اليوم أكذب من قرائنا، تختلف عن الأعرابي الذي تبوّل في المسجد، ومن ثم لا بد من اعتبار موقع الشخص وبيئته وعلمه وجهله، فالأعرابي الذي جبذ رسول الله عليه والصلاة والسلام ليسأله مالاً وأثر ذلك في عاتقه فابتسم له رسول الله وأمر له بعطاء، ليس كالذي يقول: يا محمد اعدل، ثم يغضب رسول الله ويسرد خبره وخبر أتباعه.

ولابد أن يفرق بين المجاهر والمستتر، وأخطاء الصغار والكبار، ومن ثم استخدام الطريقة المثلى في ذلك كله بعد تقدير الخطأ؛ لأن الغاية هو إصلاح الخطأ وتعديل السلوك وليس إثبات الحالة وإقرار المخطئ بخطئه.

وسأكتفي بعرض مشهد نبوي أحسبه من أعظم مشاهد التربية النبوية على مدى تاريخ البشرية، إذ سطّر فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام أعمق معاني التربية وأرسى به أوثق عرى القيم النبيلة، وأترككم مع المشهد ثم نأخذ منه ما تيسر.

عن أنس بن مالك-رضي الله عنه- أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى نُخامةً في القبلةِ، فشقَّ ذلك عليه، حتى رُئِيَ في وجهِه، فقام فحكَّه بيدِه، فقال: إن أحدَكم إذا قام في صلاتِه، فإنه يناجي ربَّه، أو إن ربَّه بينَه وبين القبلةِ، فلا يَبزُقَن أحدُكم قِبَلَ قبلتِه، ولكن عن يسارِه أو تحتَ قدمَيْه. ثم أخذ طَرَفَ رِدَائِه، فبصقَ فيه، ثم ردَّ بعضَه على بعضٍ، فقال: أو يَفْعَلْ هكذا. رواه البخاري. ويؤخذ من الحديث ما يلي:

1. امتعاض النبي صلى الله عليه وسلم لشدة ما رأى ومشقته على نفسه، فلم يتكلف إخفاءها من سنحات وجهه الشريف، ولم يرشد أحداً أنه كان ممتعضاً بل كانت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إيماءاته تتحدث بصدق وجلاء وكانت أعمق من مئة عبارة وكلمة، وهذا ظاهر في هديه عليه الصلاة والسلام كما مر، فمواقف يحمر وجهه غضباً، ومواقف يبتسم حتى تبدو نواجذه، ومرة يتصبب عرقاً، وأخرى تذرف عيناه، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام صادق المشاعر واضح السريرة.

2. مباشرته عليه الصلاة والسلام إصلاح الخطأ ولم يأمر أحداً بإصلاحه بدلاً عنه أو اكتفى بالوعظ فقط.
3. توضيح السبب وإبانته للجميع حتى لا يترك ذلك الامتعاض والنهي استفهامات، وربما يُنشئ التعتيم مغالطات معرفية في المستقبل.
4. إيجاد بدائل أخرى في حل الأمر، وظهر ذلك في توجيه أماكن البزق، ومنها الرداء.
5. البدء بالنفس في التعليم والتصحيح حيث بصق في ردائه أمامهم ليعلمهم الطريقة الصحيحة وليكسر حاجز الممارسة الفعلية ويسهل لهم ذلك مستقبلاً ولا يجعل حرجاً على أحد.
6. نلحظ أنه عليه الصلاة والسلام لم يسأل من الذي بصق، ولم يسبه حتى غيابياً، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على مراد المربي الحقيقي وهو التصحيح وليس الإقرار.

تاسعاً: الهيئة والمظهر عند المربي:

للهيئة الظاهرية تأثيرها البارز وعملها الفاعل في تكوين الانطباع الأول في نفس المتربي أو المتلقي أياً كان، وحين يتحدث ذلكم القدوة فإنهم يشخصون له بأبصارهم في لبسه وهيئته ويعتنون بسمته والتزامه بالهدي النبوي في ذلك كله، ثم إن تلك الهيئة المستقيمة للمربي تحقق استقامة نفسية له، وتلبي الانسجام والتناغم بين الباطن والظاهر عنده.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ثم إن الصراط المستقيم هو أمور باطنة في القلب من اعتقادات وإرادات وغير ذلك وأمور ظاهرة من أقوال وأفعال قد تكون عبادات وقد تكون أيضا عادات في الطعام واللباس والنكاح والمسكن والاجتماع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك. وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ولا بد ارتباط ومناسبة فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورا ظاهرة وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورا وأحوالا. وقال: فإن اللابس لثياب أهل العلم مثلا يجد من نفسه نوع انضمام إليهم واللابس لثياب الجند المقاتلة مثلا يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ويصير طبعه مقتضيا لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع)15. فما أعظم هذا النص التيمي حيث من المعلوم تأثير الباطن في الظاهر، ولكنه حكى أيضاً تأثير الظاهر في الباطن من لبس وعادات وأعمال، ولذا لزم التنبه لذلك والاهتمام به لاسيما من قبيل القدوات. وهذا لا يكن على حساب الباطن بلا شك فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللَّهَ لا ينظرُ إلى صورِكُم وأموالِكُم، ولَكِن ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم". رواه مسلم. والموازنة بينهما أمر نسبي والشريعة وازنت في ذلك وأمرت بالعناية بالجانبين المخبر والمظهر، وفي الآداب لابن مفلح وحسنه عن بشر التغلبي قال عليه الصلاة والسلام: "إنَّكم قادمونَ على إخوانِكُم، فأصلِحوا رحالَكُم، وأصلِحوا لباسَكُم، حتَّى تَكونوا كأنَّكم شامةٌ في النَّاسِ، فإنَّ اللَّهَ لا يحبُّ الفُحشَ، ولا التَّفحُّشَ"، ورواه أبو داود وحسنه النووي في رياض الصالحين. ولذا لزم القدوة العناية بجانب المظهر والتطبيق النبوي لذلك، ولا يعكس أراءه الشخصية الشاذة (إن وجدت) فيما يفعل حتى لا تتأثر العملية التربوية من قبله إذ هو مبلغ كما أمر الله وليس كما يرى "فادع واستقم كما أُمرت ومن تاب معك"، والشاهد "كما أُمرت"، وفي هذا المعنى حام هذا الأثر عن القاضي عياض: (لا ينبغي لمن يُقتدى به إذا ترخّصَ في أمرٍ لضرورة أو تشدّد فيه بوسوسة، أو لاعتقاده في ذلك مذهبًا شذّ به عن الناس أن يفعله

15 "اقتضاء الصراط المستقيم"؛ لابن تيمية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بحضرة العامة الجهلة؛ لئلا يترخّصوا برخصته لغير ضرورة أو يعتقدوا أن ما تشدد فيه هو الفرض اللازم)[16].

ولأهمية هذا الموضوع للمربي والمتربي سنتحدث عن الصفات الأساسية لهيئة القدوة ومظهره، وسأقسمها لثلاثة أقسام: (صفات متعلقة بسنن الفطرة، صفات متعلقة بالوقار، وصفات متعلقة باللباس)، وإلى البسط فيها:

1. الصفات الأساسية لهيئة القدوة ومظهره المتعلقة بسنن الفطرة.

من محاسن الإسلام وكمال الشريعة إيمانها بقيمة الجمال والاهتمام به، من خلال عددٍ من الأوامر الشرعية والأحكام التعبدية، التي تدعو إلى التزيّن وحسن المظهر واعتبار ذلك من الأمور الممدوحة شرعاً، كقوله – صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله جميل يحب الجمال "رواه مسلم، وقوله أيضاً: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" رواه الترمذي. من هذا المنطلق كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خير أسوةٍ وأفضل قدوة، بما اشتُهر به من جمال الهيئة، وحسن السمت، والاعتناء بالزينة، ليجمع بين جمال الروح وأناقة المظهر، وطيب الرائحة. والسنن على قسمين ظاهرة كالسواك والاغتسال والطيب والاهتمام بالشّعر (الشارب واللحية وشعر الرأس) وسنة الرسول فيها من قص وتوفير وتخضيب، وسنة باطنة كالنتف والاستحداد.

فكان –صلى الله عليه وسلم– يعتني بترجيل شعره، وتسريح لحيته، وكان لديه شعرٌ طويل يصل إلى أذنيه، كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه: "كان النبي – صلى الله عليه وسلم- له شعر يبلغ شحمة أذنيه" متفق عليه. وعندما يطول شعر – صلى الله عليه وسلم– كان يربطه على شكل ضفائر، ويدلّ عليه قول أم هانئ رضي الله عنها: "قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم- مكة وله أربع غدائر" رواه أبو داود. وفي أوّل أمره كان –صلى الله عليه وسلم- يسدل شعره

---

16 "شرح صحيح مسلم"؛ للنووي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مخالفةً لمشركي مكّة، وموافقةً لأهل الكتاب، والمقصود بإسدال الشعر إرساله دون تفريق، وبعد ذلك صار يفرق رأسه فرقتين، مبتدئاً بالجهة اليُمنى كعادته في التيامن، ودليل ما سبق قول ابن عباس رضي الله عنه: "أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأسه "رواه البخاري. لكن ينبغي عند إطالة الشعر زائداً عن المنكبين أن لا يخرج إلى شهرة أو نقص مروءة ونحو ذلك، كما قاله ابن مفلح في الآداب الشرعية. وكان -صلى الله عليه وسلم- يحبّ التيمّن في شأنه كلّه، تقول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليحب التيمن في طهّوره إذا تطهّر، وفي ترجّله إذا ترجّل، وفي انتعاله إذا انتعل" رواه مسلم، والترجّل هو تسريح الشعر. وفي كلّ الأحوال، لم يكن اهتمام النبي -صلى الله عليه وسلم- بشعره مبالغاً فيه، بل كان يحذّر من الإفراط في ذلك، كما روى عبدالله بن مغفل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الترجّل إلا غبّا - أي بين الحين والآخر، رواه الترمذي. واختلف أصحابه رضي الله عنهم في استعمال النبي -صلى الله عليه وسلم- للخضاب، فقال بعضهم: خضب، وقال آخرون: لم يخضب، والجمع بينها كما قال الإمام النووي: "والمختار أنه -صلى الله عليه وسلم- صبغ في وقتٍ وتركه في معظم الأوقات، فأخبر كلٌّ بما رأى وهو صادق، وهذا التأويل كالمتعيّن". وعندما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحلق رأسه لا يترك من شعره شيئاً، يقول الإمام ابن القيم: "كان هديه -صلى الله عليه وسلم- في حلق الرأس تركه كله، أو أخذه كله، ولم يكن يحلق بعضه، ويدع بعضه، ولم يحفظ عنه حلقه إلا في نسك". ومن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- في الزينة، استعماله للكحل، وكانت لديه مكحلة يكتحل منها كل ليلة، ويفضّل استخدام (الإثمد) وهو أجود أنواع الكحل،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: "اكتحلوا بالإثمد؛ فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر" رواه الترمذي.

كذلك كانت للنبي –صلى الله عليه وسلم– عنايةٌ خاصة بسنن الفطرة، كتوفير لحيته وإعفائها، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرون لحيته من وراء ظهره، يشير إليه قول خباب بن الأرت رضي الله عنه عندما سأله أبو معمر عن كيفيّة معرفتهم بقراءة النبي- صلى الله عليه وسلم- في الظهر والعصر، فقال له: باضطراب لحيته – أي تحرّكها-، رواه البخاري. وفي الحديث المتفق عليه قال عليه الصلاة والسلام: "الفطرةُ خمسٌ، أو خمسٌ من الفطرةِ: الختانُ، والاستحدادُ، ونتفُ الإبطِ، وتقليمُ الأظفارِ، وقصُّ الشاربِ". ومن سنن الفطرة التي عمل بها النبي –صلى الله عليه وسلم- قص الشارب، وكان يأمر بذلك أصحابه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "قصوا الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس"، بل صحّ عنه عليه الصلاة والسلام قوله: "من لم يأخذ شاربه فليس منا" رواه أحمد.

كذلك كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يعتني بنظافة فمه، ويُكثر من استخدام السواك، حال إفطاره وصومه، وعند وضوئه أو صلاته، وعند استيقاظه من نومه، وحين دخوله لمترله، حتى في لحظاته الأخيرة أمر عائشة أن تأتيه بالسواك، ليلقى ربّه بأطيب رائحة.

وللطيب في حياة النبي –صلى الله عليه وسلم– شأنٌ آخر، فقد أحبّه حبّاً شديداً لا يكاد يوازيه شيء من أمور الدنيا، وقال في ذلك: "حُبّب إليّ من الدنيا النساء والطيب" رواه النسائي، ولذلك كان لا يردّ الطيب من أحدٍ أبداً. وكان له –صلى الله عليه وسلم– سُكّة يتطيّب منها – وهي نوعٌ من الطيب أو وعاء فيه طيب مجتمع-، وكان أحبّ الطيب إليه المسك، وتذكر عائشة رضي الله عنها عن تطيّبه حال إحرامه فتقول: (كأني انظر إلى وبيص المسك – أي بريقه- في مفرق رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهو محرم)رواه مسلم. وفي البخاري كان أنسُ رضي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللهُ عنهُ لا يَرُدُّ الطِّيبَ، قال: وزعمَ أنسٌ: أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان لا يَرُدُّ الطِّيبَ. وروى ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح عن ابن المسيبِ، سمع يقول: إن اللهَ طيّبٌ يحبّ الطيبَ، نظيفٌ يحبُّ النظافةَ، كريمٌ يحبُ الكرمَ، جوادٌ يحب الجودَ؛ فنظفُوا –أراه قال: أفنيتكُم–؛ ولا تشبّهوا باليهودِ.

فمراعاة سنن الفطرة أمر لازم في حياة المربي واقتفاءه في ذلك سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، إذ ثمرة ذلك على دينه ودنياه.

2. الصفات الأساسية لهيئة القدوة ومظهره المتعلقة بالتزام الوقار.

الوقار والرزانة والسمت الحسن من الصفات النبيلة التي ينبغي أن يتميز بها القدوات من العلماء والدعاة وأهل الرأي. وهي من المحاسن التي تدفع الناس إلى الاقتداء بهم والاطمئنان إلى منهاجهم، وتأمل معي قول الحارث بن عمرو السهمي رضي الله عنه: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمنى أو بعرفات، وقد أطاف به الناس. قال: فتجيء الأعراب، فإذا رأوا وجهه قالوا: هذا وجه مبارك). أخرجه أبو داود وحسنه الألباني، وإذا كان حسن السمت الظاهر مما ينبغي التواصي به، فإن خلق الإنسان الذي يمشي به بين الناس من باب أولى، وقد ثبت عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ الهَدي الصَّالح والسَّمت الصَّالح والاقتصاد جُزءٌ من خمسة وعشرين جزءًا من النُّبوَّة" صححه أحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد، وصححه الألباني في سنن أبي داود. والوقار صفة تبعث على التزام السكينة والوداعة، ويقال في اللغة: رجل وقور، أي: ذو حلم ورزانة[17]. وينبغي لمن يربي ويتربى في محاضن العلم والدعوة، أن تزكو نفسه، وتسمو همومه وطموحاته، وأن تظهر أثر هذه التربية في حياته كلها، كما قال الحسن البصري: (قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه،

---

17 "لسان العرب"، مادة: وقر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وهديه، ولسانه وبصره، وبرِّه)[18]. ونحوه قول الإمام مالك: إن حقاً على طالب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لأثر من مضى قبله.[19] وعندما تتأمل سير العلماء تقف على نماذج مشرقة من حسن السمت والوقار والرزانة، فها هو ذا أبو داود السجستاني – صاحب السنن المشهورة – يقول عن شيخه الإمام أحمد: (لقيت مائتين من مشايخ العلم، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض فيما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم)[20].

والوقار صفة لازمة في العبد الصالح مهما احتاج الأمر إلى إسراع وعجلة، وهل هناك أهم من تلبية نداء حي على الفلاح؟ في الحديث عن أبي هريرة، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصَّلاة وعليكم بالسَّكينة والوَقَار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا" رواه البخاري ومسلم. قال النَّوويُّ: (الوَقَار في الهيئة وغض البصر، وخفض الصَّوت، والإقبال على طريقه بغير التفات ونحو ذلك، والله أعلم).[21] ومع ذلك فإن الحسنة مترلة بين السيئتين؛ فليس الوقار المقصود يعني الفظاظة والغلظة وجفاء الطبع، وأن يكون العالم أو الداعية عابس الوجه مقطب الجبين، إذ ليس ذلك من محاسن الأخلاق، ولا من علامات الشرف والسؤدد الذي ينبغي أن يتحلى به الدعاة، وإنما المقصود الترفع عن الفحش والبذاءة، والبعد عن الخفة والسفه وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يضحك، ويمازح أصحابه – رضي الله عنه–، لكنه لا يقول إلا حقاً. أخرجه أحمد والترمذي. وقوى إسناده الأرناؤوط في تحقيقه للمسند. ذلك أن الوقار يقصد به ترفع الداعية عن اللهو وسفساف الأمور، والمزاح العابث، والاشتغال بما لا فائدة فيه من دين ولا دنيا، كالاشتغال في توافه الأمور، والإفراط في التنزه، والتشجيع

---

[18] "الزهد"؛ لابن أبي عاصم،(285/1).

[19] "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع"؛ للخطيب البغدادي، (156/1).

[20] "حلية الأولياء"، (164/9).

[21] "شرح صحيح مسلم"؛ للنووي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرياضي، والتعصب القبلي.. ونحوها. وأحسب أن التوازن والاعتدال في شخصية الداعية يحفظ له هيبته وقدره عند الناس، ويزيد من بركته وفضله في دعوته.

وسنشير لبعض معالم الوقار في هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيفيد منها المربي القدوة:

الأول: الكلام؛ هديه صلى الله عليه وسلم في الكلام فيستبين من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه. وقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم. رواه البخاري ومسلم. قال ابن حجر: قوله: (لو عده العاد لأحصاه) أي لو عد كلماته أو مفرداته أو حروفه لأطاق ذلك وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم. وقوله: لم يكن يسرد الحديث كسردكم، أي: يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع. زاد الإسماعيلي من رواية ابن المبارك عن يونس: إنما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلاً، فهما تفهمه القلوب.ا.هـ. وقد قال معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وهل نؤاخذ بما تكلمت به ألسنتنا؟ قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذ معاذ ثم قال: "يا معاذ ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم فمن كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيراً أو يسكت عن شر. قولوا خيراً تغنموا واسكتوا عن شر تسلموا ". فبهذا المخلوق الصغير يعبر الإنسان عن بغيته ويفصح عن مشاعره به يطلب حاجته ويدافع عن نفسه ويعبر عن مكنون فؤاده بحادث جليسه ويؤانس رفيقه وبه السقطة والدنو والرفعة والعلو، وعند البخاري قال صلى الله عليه وسلم: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة".

قال الشاعر :

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

احذر لسانك أيها الإنسان *** لا يلدغنك إنه ثعبان
والله إن الموت زلة لفظة *** فيها الهلاك وكلها خسران

ومن هديه صلى الله عليه وسلم في الكلام هو أنه نهى عن الصمت إلى الليل عن علي رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول صلى الله عليه وسلم: "لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى الليل" رواه أبو داود بإسناد حسن، أي سكوت يوم إلى الليل. وكان صلى الله عليه وسلم طويل الصمت، عن جابر بن سمره رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويل الصمت قليل الضحك" رواه أحمد. والتوفيق بين حديث النهي عن الصمت إلى الليل وحديث أنه كان طويل الصمت عليه الصلاة والسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر من الصمت ويتكلم عند الحاجة.

ومن صفات كلامه صلى الله عليه وسلم أنه أوتي جوامع الكلم، في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم ونصرت بالرعب".

والمقصود بجوامع الكلم: قال النووي رحمه الله، قال الهروي: يعني به القرآن الكريم، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني[22]. وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الكلمة ثلاثة لتعقل عنه". وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما كان رسول صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ولكنه كان يتكلم بكلام بين فضل يحفظه من جلس إليه"، وقالت: كان كلامه صلى الله عليه وسلم كلاماً فصلاً يفهمه كل من سمعه. وثمة محاذير لسانية كرهها الشارع ينبغي التحرز منها؛ فعن جابر رضي الله عنهما

---

22 "شرح صحح مسلم".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا: الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون". الثرثار: كثير الكلام تكلفاً. المتشدق: المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. المتفيهق: من الفهق وهو الامتلاء وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويغرب به تكبراً وارتفاعاً وإظهاراً للفضيلة على غيره.

وحذر صلى الله عليه وسلم من(الإشاعات)، قال أبو مسعود لأبي عبد الله أو قال أبو عبد الله لأبي مسعود: "ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في: زعموا؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "بئس مطية الرجل زعموا"، وقال صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع". قال الإمام النووي رحمه الله: "وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو ولا يشترط فيه التعمد لكن التعمد شرط في كونه إثماً والله أعلم"[23]. قال مالك رحمه الله: "أعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع"، قال النووي رحمه الله: فمعناه أنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ في روايته فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه. وتدبر قول الحق سبحانه: "وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا"النساء:83. قال

---

23 "شرح صحيح مسلم"

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ابن كثير: إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة.

وثمة مناوٍ لفظية اشتملت عليها النصوص وليس المقام لبسطها، ولكن من المهم للقدوة أن يعتني بهذا الأمر ويوليه عناية.

الثاني: هيئة الوجه والتبسم؛ لا شك أن المسلم في حياته تعتريه أكدار وهموم وأحزان وغموم، مما يحتاج حقيقة إلى من يجلوا حلكتها، ويخترق ظلمتها بشيء من الابتسامة الرفيعة والضحكة المتزنة والدعابة المرموقة، والجدّية سمة بارزة في حياة المسلم، وهي مطلب ملح وأمر مهم، فإذا كانت صارمة فإنها لا تزرع الابتسامة على الوجه، ولا تدخل السرور على النفس.

إن البلسم الناجع والدواء النافع في ترويح النفس وطرد الآلام وتخفيف الأحزان عن المسلم، رسم الابتسامة على شفتيه بضحكة متزنة ودعابة بريئة وابتسامة مشرقة. ودونك المنهج النبوي ينبئك عن ذلك، فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه يقول: "ما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت إلا تبسم في وجهي" رواه البخاري، ويقول جابر بن سمرة رضي الله عنه في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "...كان لا يضحك إلا تبسما..." رواه الحاكم، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال: "ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه الترمذي، وعند مسلم عن سماك بن حرب قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم"، وعند الترمذي من حديث عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: ما كان ضحك رسول الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

صلى الله عليه وسلم إلا تبسما، وكان النبي صلى الله عليه وسلم كالرجل من رجالكم، إلا أنه كان أكرم الناس، وألين الناس ضحّاكا بسّاما[24].

وقد عده عليه الصلاة والسلام من الأعطيات المأجور صاحبها، وذلك لعظم أثرها، وبالغ فاعليتها "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة" رواه الترمذي. وقال: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق" رواه مسلم. فطلاقة الوجه مع غشيان الابتسامة الصادقة من أكبر ما يعود على المسلم بالأجر دون مشقة، وبالقبول عند الناس بلا عناء، وذلك يكون باعتدال وتوسط يُدرَك بتقدير الأمور وتأطير المواقف بالأطر التربوية، وقد حُفظ ذلك الاعتدال عن إمام القدوات، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعًا قطُّ ضاحكًا، حتى تُرى منه لهواته، وإنَّما كان يتبسَّم" رواه البخاري ومسلم. وهذا الحديث ذكره النَّوويُّ تحت باب الوَقَار والسَّكينة في كتابه رياض الصَّالحين، وقد قال الشَّيخ ابن عثيمين مُعلِّقًا: (يعني: ليس يضحك ضَحِكًا فاحشًا بقهقهة، يفتح فمه حتى تبدو لَهاته ولكنَّه صلى الله عليه وسلم كان يبتسم أو يضحك حتى تبدو نواجِذه، أو تبدو أنيابه، وهذا من وَقَار النَّبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا تجد الرَّجل كثير الكَرْكَرة -الذي إذا ضحك، قهقه وفتح فاه- يكون هيِّنًا عند النَّاس، وضيعًا عندهم، ليس له وقار، وأمَّا الذي يُكثر التَّبسُّم في محله، فإنَّه محبوبٌ، تنشرح برؤيته الصُّدور، وتطمئنُّ به القلوب. قال ابن حجر: (والذي يظهر من مجموع الأحاديث: أنَّه صلى الله عليه وسلم كان -في مُعْظَم أحواله- لا يزيد على التَّبسُّم، ورُبَّـــما زاد على ذلك، فضحك، والمكروه من ذلك إنَّما هو الإكثار منه أو الإفراط فيه؛ لأنَّه يُذهب الوَقَار)[25].

---

[24] "مكارم الأخلاق"؛ لابن أبي الدنيا، (ص:397).

[25] "فتح الباري"؛ لابن حجر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الثالث: الجلوس؛ إن لهيئة الجلوس بين الناس رمزيات عندهم في الحكم على هدي الإنسان وعقله، وهيئة جلسة النبي صلى الله عليه وسلم قد ورد فيها عدة أحاديث دلالة أنها لم تكن عشوائية أو على أي اتجاه فكانت جلسات متعددة، ولكل مقام ما يناسبه، من هذه الأحاديث:

- حديث قيلة بنت مخرمة: أنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم وهو قاعد القرفصاء، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق. رواه أبو داود وحسنه الألباني. وقال العظيم آبادي في عون المعبود: قال الخطابي: هو جلسة المحتبي، وليس هو المحتبي بثوبه ولكنه الذي يحتبي بيديه. وفي القاموس: القرفصاء أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه، أو يجلس على ركبتيه منكباً ويلصق بطنه بفخذيه ويتأبط كفيه. والمتخشع: أي الخاشع الخاضع المتواضع.اهـــ.

- ومنها حديث عبد الله بن زيد: أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى، قال سعيد بن المسيب: كان عمر وعثمان يفعلان ذلك. رواه الشيخان. ولكن روى جابر ما يعارضه، فقال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع الرجل إحدى رجليه على الأخرى وهو مستلق على ظهره. أخرجه أبو داود وصححه الألباني. قال ابن حجر في الفتح: قال الخطابي: فيه أن النهي الوارد عن ذلك منسوخ، أو يحمل النهي حيث يخشى أن تبدو العورة، والجواز حيث يؤمن ذلك، قلت: الثاني أولى من ادعاء النسخ، لأنه لا يثبت بالاحتمال، وممن جزم به البيهقي والبغوي وغيرهما من المحدثين، وجزم ابن بطال ومن تبعه بأنه منسوخ. والظاهر أن فعله صلى الله عليه وسلم كان لبيان الجواز، وكان ذلك في وقت الاستراحة لا عند مجتمع الناس لما عرف من عادته من الجلوس بينهم بالوقار التام صلى الله عليه وسلم، قال الخطابي: وفيه جواز الاتكاء في المسجد والاضطجاع وأنواع الاستراحة. انتهى. ومنها حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس احتبى بيده.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- رواه أبو داود وصححه الألباني. قال العظيم آبادي: احتبى بيده زاد البزار: ونصب ركبتيه أي جمع ساقيه إلى بطنه مع ظهره بيديه عوضاً عن جمعهما بثوب، فالاحتباء باليدين غير منهي عنه إلا إذا كان ينتظر الصلاة.ا.ه. وهذه الأحاديث الثلاثة بوب عليها الترمذي في كتاب الشمائل المحمدية: باب ما جاء في جلسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: باب ما جاء في تكأة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأسند فيه أحاديث منها: عن جابر بن سمرة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً على وسادة على يساره، ورواه الترمذي وأبو داود في سننيهما، وصححه الألباني. ومنها عن أبي بكرة الثقفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أحدثكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، قال: وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً، قال: وشهادة الزور أو قول الزور. وهذا متفق عليه. ومنها عن أبي جحيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما أنا فلا آكل متكئاً. رواه البخاري. ومما روي في هيئة جلسته صلى الله عليه وسلم ما رواه أنس بن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لقي الرجل فكلمه لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا صافحة لم يترع يده من يده حتى يكون هو الذي يترعها، و لم ير متقدما بركبتيه جليساً له قط. أخرجه أحمد وابن ماجه، وضعفه الألباني إلا جملة المصافحة، قال السندي: قوله (و لم ير) على بناء المفعول (جليسا له) مفعول متقدما أي لم يقدم في المجلس ركبته على ركبة جليسه، والحديث مسوق لأخلاقه الكريمة، وفي الزوائد: مدار الحديث على زيد العمي وهو ضعيف. ا.هـــ. ومن ذلك ما رواه جابر بن سمرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذ صلى الفجر تربع في مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء. أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود واللفظ له. قال العظيم آبادي: تربع في مجلسه: أي جلس مربعاً واستمر عليه. وقال جابر بن سمرة أيضاً: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فرأيته متكئاً على مرفقه. رواه أحمد. وهناك هيئات نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك ما رواه الشريد بن سويد، قال: مر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس هكذا -وقد وضعت

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي- فقال: أتقعد قعدة المغضوب عليهم. رواه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني. ومن ذلك ما رواه بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يقعد بين الظل والشمس. رواه ابن ماجه وصححه الألباني. وأما مد الرجل أمام الناس فلم نر فيه حديثاً صحيحاً، وقد كثر في كلام أهل العلم قولهم بجرحة من يمد رجله عند الناس، وقال النووي في المجموع: يجوز القعود متربعاً ومفترشاً ومتوركاً.. ومد الرجل، ولا كراهة في شيء من ذلك إذا لم يكشف عورته و لم يمد رجله بحضرة الناس، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على ذلك. وذكر بعض الأحاديث التي ذكرنا سابقاً، وقد روى الترمذي في السنن: أنه صلى الله عليه وسلم لم ير مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له. وهذا الحديث ضعفه الألباني وقد ذكر الملا علي قاري والمباركفوري في شرح هذا الحديث: أنه ما كان يقدم ركبتيه على ركبتي جليسه كما يفعل الجبابرة، وقيل: أراد بالركبتين الرجلين وتقديمهما مدهما وبسطهما.

- وعند البخاري وغيره أن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهى عن بيعتَين، وعن لُبستَين، وعن صلاتَين: "نهى عن الصلاةِ بعدَ الفجرِ حتى تَطلُعَ الشمسُ، وبعدَ العصرِ حتى تغرُبَ الشمسُ، وعن اشتِمالِ الصمَّاءِ، وعن الاحتِباءِ في ثوبٍ واحدٍ، يُفْضي بفرجِه إلى السماءِ، وعن المُنابذَةِ، والمُلامسَةِ". وعند مسلم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يأكل الرجل بشماله، أو يمشي في نعل واحدة، وأن يشتمل الصماء، وأن يحتبي في ثوب واحد كاشفا عن فرجه. قال النووي: (وأما اشتمال الصماء بالمد فقال الأصمعي : هو أن يشتمل بالثوب حتى يجلل به جسده، لا يرفع منه جانبا، فلا يبقى ما يخرج منه يده، وهذا يقوله أكثر أهل اللغة. قال ابن قتيبة: سميت صماء لأنه سد المنافذ كلها كالصخرة الصماء التي ليس فيها خرق ولا صدع. قال أبو عبيد: وأما الفقهاء فيقولون هو أن يشتمل بثوب ليس عليه غيره، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على أحد منكبيه. قال العلماء: فعلى تفسير أهل اللغة يكره الاشتمال المذكور لئلا تعرض له حاجة من دفع بعض الهوام ونحوها أو غير ذلك فيعسر عليه، أو يتعذر فيلحقه الضرر. وعلى تفسير الفقهاء يحرم الاشتمال المذكور إن انكشف به

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بعض العورة، وإلا فيكره. وأما الاحتباء بالمد فهو أن يقعد الإنسان على أليتيه، وينصب ساقيه، ويحتوي عليهما بثوب أو نحوه أو بيده، وهذه القعدة يقال لها الحبوة بضم الحاء وكسرها، وكان هذا الاحتباء عادة للعرب في مجالسهم، فإن انكشف معه شيء من عورته فهو حرام. والله أعلم)[26].

وفي الجلوس للطعام فقد روى الإمام ابن ماجه من حديث عبد الله بن بسر قال: كان للنبي صلى الله عليه وسلم قصعة يقال لها الغراء...وفيه: فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أعرابي: ما هذه الجلسة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعلني عبداً شكوراً، و لم يجعلني جباراً عنيداً ". وإسناده جيد ، وقال ابن حجر: المستحب في صفة الجلوس للأكل أن يكون جاثياً على ركبتيه وظهور قدميه، أو يجلس وينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى. قال ابن القيم في حكمة ذلك: لئلا يحصل الامتلاء المنهي عنه. وقال أيضا في الهدي: ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يجلس متوركاً على ركبتيه، ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعاً لله وأدباً بين يديه، وهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها، لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله تعالى عليه. وقد ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يأكل متكئاً، والاتكاء على ثلاثة أنواع: أحدهما: الاتكاء على الجنب. والثاني: التربع، والثالث: الاتكاء على إحدى يديه وأكله بالأخرى، والثلاث مذمومة.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي جحيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا آكل وأنا متكئ" أخرجه الإمام أحمد والبخاري وابن ماجه. وهناك صفة أخرى للأكل نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي الانبطاح، فعن ابن عمر أنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجلوس على مائدة يشرب عليها الخمر، وأن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه. رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم. وهو صحيح.

---

26 "شرح صحيح مسلم".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرابع: المشي؛ قال الله: "واقصد في مشيك"، وقال سبحانه: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" وقال تبارك وتعالى: "ولا تمش في الأرض مرحاً"، قال ابن القيم يصف هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في المشي: (كان إذا مشى تكفأ تكفؤا، وكان أسرع الناس مشية وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة :ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب، وقال مرة: إذا مشى تقلع، قلت: والتقلع الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالا، وإما أن يمشي هونا، وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا"الفرقان:63، قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير مكترث، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات)[27].

3. الصفات الأساسية لهيئة القدوة ومظهره المتعلقة باللبس. من نعم الله تعالى التي امتن بها على عباده، وميزهم بها عن سائر المخلوقات، نعمة اللباس، قال تعالى: "يا بني

---

[27]"زاد المعاد".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً"الأعراف:26، وقال تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق". وقال تبارك وتعالى: "وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تَقِيكم بأسكمْ"النحل:81، وعند مسلم قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله جميل يحب الجمال"، واللباس شأنه شأن غيره من أمور الحياة اليومية التي ينبغي على المسلم أن يلتزم فيها هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان هديه في اللباس أعظم الهدي وأكمله، فكان عليه الصلاة والسلام يلبس ما تيسر له من اللباس، سواء أكان صوفاً، أم قطناً أم غير ذلك، من غير تكلف ولا إسراف ولا شهرة. وكان له ثوب يلبسه في العيدين وفي الجمعة، وكان إذا وفد عليه الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمر عِلْية قومه بذلك. وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بنظافة ثيابه، ويحرص على تطييبها، ويوصي أصحابه بذلك، وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلَّم أن حسن السمت، والزيِّ الحسن من شمائل الأنبياء وخصالهم النبيلة. وكان أحب ألوان الثياب إليه –الثياب البيضاء– فكان يؤثرها على غيرها من الثياب، قال صلى الله عليه وسلم: "البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم" رواه الترمذي، و لم يكن ذلك مانعاً من أن يتخير أي لون آخر، فقد ورد عنه أنه لبس حُلة حمراء كما نقل ذلك البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في حلة حمراء، لم أر شيئا قط أحسن منه" رواه البخاري. وبين لنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– آداباً يحسن بالمسلم أن يتحلى بها عند لبسه لثيابه فمن ذلك التسمية، فقد كان عليه الصلاة والسلام يبدأ بها في أعماله كلها، ومنها البدء باليمين عند اللبس وبالشمال عند الخلع، لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه التيامن في شأنه كله)رواه البخاري، وهو يدل على استحباب البدء باليمين في كل ما كان من باب التكريم والزينة. ومن الآداب الإتيان بالذكر المشروع عند لبس الثياب فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا لبس ثوبه أو قميصه، حَمِدَ الله تعالى قائلاً: "الحمدُ لله الذي كَساني هذا ورَزَقَنِيه من غير حولٍ مني ولا قُوة" رواه أبو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

داود. وإذا لبس ثوباً جديداً دعا الله قائلاً: "اللهم لَكَ الحمدُ أَنتَ كَسَوتَنِيه أسألك من خَيرِهِ وخَيْرَ ما صُنع له، وأعوذ بك مِنْ شرِّه وشَرِّ ما صُنِعَ لَهُ" رواه الترمذي. ومن جملة هديه صلى الله عليه وسلم في لباسه عدم إطالة الثوب والإزار، فكان إزاره لا يتجاوز الكعبين، وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إزرة المؤمن إلى نصف الساق ولا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين" رواه أبو داود، وقال: "ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار" رواه البخاري. واتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة، وكان يضعه في خنصر يده اليسرى، وتارة يضعه في يده اليمنى، ونهى عن التختم بالذهب. ونهى عليه الصلاة والسلام عن لبس الحرير من الثياب، ونهى عن لبس ثوب الشهرة الذي يتميز به الإنسان على غيره حتى يشتهر به، فصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه نارا" رواه ابن ماجه. وحرم النبي صلى الله عليه وسلم، تشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)رواه البخاري، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل" رواه أبو داود.

هذه طائفة من هدي نبينا صلى الله عليه وسلم في اللباس، فلا يفوت على المربي ضرورة تطبيق وإحياء سنن الحبيب صلى الله عليه وسلم. وليراعِ البيئات المختلفة ونفسية المدعوين كالفقراء وأهل البادية، وأن يضبط معنى الشهرة التي خاض فيها كثير من الصالحين بحسن نية في الغالب فليست اللبس الثمين على كل حال، فربما كان التقشف شهرة. فقد قال ابن الأثير في جامع الأصول: هو الذي إذا لبسه الإنسان افتضح به واشتهر بين الناس، والمراد به ما ليس من لباس الرجال، ولا يجوز لهم لبسه شرعا ولا عرفا. وقال في النهاية: الشُهْرة ظُهور الشَّيء في شُنْعة حتى يَشْهَره الناس. وقال ابن تيمية في الفتاوى: وتكره الشهرة من الثياب وهو المترفع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخارج عن العادة، والمتخفض الخارج عن العادة، فإن السلف كانوا يكرهون الشهرتين المترفع والمتخفض. واعلم أن أجمل اللباس وأفضله لباس التقوى، كما قال تعالى: "ولباس التقوى ذلك خير"الأعراف:26، وصدق الشاعر حين قال:

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً

وختام هذه الفِقرة نقول إن مشروع الدعوة والإصلاح الذي يحمله الدعاة والمصلحون يعرف من خلال سيرتهم العملية، فالواقع الشخصي الذي يشاهده الناس هو عنوان ذلك المشروع، وهو الذي يعبر بجلاء عن صفائه واستقامته، ولهذا كان أسمى ما يرتديه الداعية أمام نفسه وأمام الناس رداء الصدق والوقار.

عاشراً: موعظة المربي القدوة.

أيها المربي القدير! لقد حُزت شرف التربية والدعوة على منهج الرسل وطريق السلف، فاعرف لهذه المكانة قدرها ولهذا المنصب حقه، ثم ليكن تقديرك لمهمتك تقدير للمتربي الذي اختارك معلماً ومرشداً فتخلص في تربيته وتصدق في تزكيته، قال ابن القيم: (أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع إليه معروفاً، فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر)[28]. ثم لا يخفى على مثلك شؤم مخالفة القول العمل ومخالفة الهدي للنطق، وقد قال سبحانه: "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ*كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ"الصف:2-3، وقال تبارك وتعالى: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ* ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"البقرة:43-44. قال ابن القيم: علماء السوء جلسوا على أبواب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت

[28] "الفوائد".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق[29]. ودوننا هذا الحديث المهيب في الصحيحين يرويه أسامة بن زيد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلانا ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"، فيؤاخذ المعلم الآمر الناهي بغير مؤاخذة المتلقي، لعلم الأول وجهل الثاني، فكانت لازمية العمل للعلم في شرعنا من أولى أسباب الرضوان، قال ابن القيم: فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه يغفر له مالا يغفر للعالم، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية، وبغض الله لها، وعقوبته عليها، أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل، وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبي بالإنعام، وخص بالفضل والإكرام، ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات، فأرتعها في مراتع الهلكات، وتجرأ على انتهاك الحرمات، واستخف بالتبعات والسيئات، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته[30].

---

29 "الفوائد".

30 "مفتاح دار السعادة".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد صدق الأول حين قال:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَلِّمُ غَيرَهُ *** هَلا لِنَفسِكَ كانَ ذا التَعليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لِذي السَّقامِ وَذي الضَّنا *** كيما يَصحّ بِهِ وَأَنتَ سَقيمُ
وَتَراكَ تُصلِحُ بالرشادِ عُقولَنا *** أَبَداً وَأَنتَ مِن الرَّشادِ عَديمُ
فابدأ بِنَفسِكَ فانهَها عَن غَيِّها *** فَإِذا اِنتَهَت عَنهُ فأنتَ حَكيمُ
فَهُناكَ يُقبَلُ ما تَقولُ وَيَهتَدي *** بِالقَولِ منك وَينفَعُ التعليمُ
لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثلَهُ *** عارٌ عَلَيكَ إِذا فعلتَ عَظيمُ[31]

فاللهم ألهمنا رشدنا وأعذنا شر أنفسنا!

الحادي عشر: مفاهيم خاطئة.

وهنا بعض المفاهيم التي يتوهمها البعض أنها حق وهي ليست بذلك، وهي تساهم في كبح سير عجلة العمل والتأثير، وهذا ثمرة ذكرها.

1. اعتبار رؤية البشر محض الرياء. وهذا إذا كان منشأ العمل هم البشر فصحيح، وأما حديثنا فهو أن يكون منشأ العمل هو رضى رب البشر، والبشر تبع لخالقهم.
2. طلب الكمال يتعارض مع نقص البشرية. وهذا في حال أن يشترط على نفسه المثالية في كل أمر فلا شك أن هذا محال وتكلّف، وأما طلب الكمال والزيادة فلا شك أنه طريق الصديقين ومرام المصلحين والنصوص والآثار وهدي السلف في عباداتهم وعلمهم دالة على ذلك.
3. الأسرة مرآة الداعية فإن كانوا صالحين فهذه ميزة نجاحه، وإن لا فهو دليل فشله. وهذا أمر مطلوب فعلاً دعت له النصوص والآثار وهدي الرسل، قال سبحانه: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وقال سبحانه: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ"طه. وقال جل وعلا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

[31] منسوبة لأبي الأسود الدؤلي (ت69هـ)، ونسبت للمتوكل الليثي (ت85هـ).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ"التحريم:6، ولكن اعتقاد هذا المفهوم مخالف لسنن الله، فهذا نوح عليه السلام يصاب في ابنه وزوجه، ولم يثنه ذلك ولم يلمز بالفشل، وهذا إبراهيم عليه السلام في أبيه، وهذا لوط عليه السلام في زوجه أيضاً، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم في بعض عمومته كأبي طالب وأبي لهب، فلا ينبغ الاستسلام لمثل ذلك إذا ما قام الداعية بحق الدعوة للأقربين.

4. الذنوب مانعة من التأسي، وهذا مردود من نصوص الوحيين، فكل بني آدم خطاء، ولا يمنع الذنب من التأسي، ولكن المانع في عدم التوبة والاستغفار.

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب

فمن يعظ العاصين بعد محمد

5. تصحيح الموقف وتوضيح اللبس ضعف. وهذا ضمور في التفكير وضعف في البصيرة، فأين قائل ذلك من رسول الله حين قال للصحابيْن وهو يَقْلِب زوجه صفية لبيتها: "على رسلكما إنها صفية"، أليس في ذلك توضيح للبس وإبانة للموقف. وكذلك الاعتذار هو من سمات القدوات ومن شعار الأقوياء الذين يزيدهم اعتذارهم رفعة ويصقلهم توضيحهم لمعاناً، وهو أمر نسبي تقتضيه المصلحة وليس على كل حال.

وأخيراً لنتأمل ما قَالَ الأوزاعي وهو يحكي واقع القدوة: كنا نضحك ونمرح، فلما صرنا يقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسم[32]. فهنيئاً لك أيها المربي مضيك في هذا الركب العظيم، ركب الأنبياء والمصلحين، وقد صدق الحق "فبهداهم اقتده"، فاقتد بهم يُقتدى بك.

وكتبه سعيد بن محمد آل ثابت

Tahbit66@gmail.com

[32] "تاريخ دمشق"؛ لابن عساكر.